

لا شك أن الإنسان اجتماعي بالفطرة وهي ضرورة لحياته، فرسها المولى عز وجل فيه حينما خلقه، ولما هبط آدم إلى الأرض لم يهبط وحده بل مع زوجه، قال تعالى: ﴿قَوْمٌ أَنَّا أَنْهَا﴾ [طه: ١٢٣] و قال تعالى: ﴿أَلَّا يَرَوْنَ﴾ [البقرة: ٩٤] مقتضيات اجتماع البشر أن يتآثر بعضهم بأفكار بعض سلوكهم، الحجر على الفكر أو التحرز من تأثير الأفكار؛ وذلك لأنها ليست مادة يمكن السيطرة عليها ومنعها عن الناس، وقد حاول البشر ذلك فلم ولن وقد طرأ على المجتمعات الإسلامية في عصور التأثر والتخلف كثير من الأفكار والمذاهب التي نشأت في المجتمعات الغربية المتطرفة ماديًا؛ مما سوغ كثيراً من تلك الأفكار حتى زعم البعض أن سر تطور تلك وسعوا جاهدين في تطبيق تلك الأفكار في المجتمعات الإسلامية ضاربين عرض الحائط بما لدى المجتمعات الإسلامية من نظم وتشريعات سماوية لكنهم كانوا في اندفاع لا يفسره إلا ما ذكره ابن خلدون في مقدمته من أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائل أحواله وعوائده، وذكر أن السبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيم، أو لما تفالط به من أناقيرادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، وألجل ذلك فإنه لا يستغرب موقف كثير من أبناء المسلمين الذين حتى أصبح كل ما جاءهم من قبل الغرب من الأفكار والمبادئ والنظريات مدعماً ب الأساس الحديدي معزواً بقوة الحاج وشهاده العلم، أنزله ذوو العقول الفاترة والعقليات المغلوبة - هؤلاء - منزلة الحقائق التي يجب الإيمان بها واستقرار في سويدة قلوبهم - من حيث لا يشعرون - أن كل ما يأتي من الغرب هو الحق وهو المقاييس للصحة والصواب. هذا على الرغم من وجود كثير من التناقضات التي يبوء بها كأهل منهج المواقف، وتناقض بين الأقوال والأعمال، الأمر الذي أربك دعاة التغريب في المجتمعات الإسلامية - لاحقاً - لاسيما بعد ظهور زيف كثير من المبادئ والأفكار الغربية التي كان أولئك يدعون إليها ويبشرون بها بصورة لأفغانستان، ثم العراق بعد ذلك في تجل واضح ومصادمة جلية للمبادئ وما تجدر الإشارة إليه هنا؛ موقف أولئك الذين خذلهم الغرب من خلال الممارسات التي جاءت مخالفة لما كان يبشر به دعاوه في العالم؛ لاسيما البلد الإسلامية إذ تنوّعت ردود أفعالهم على ثلاثة أشكال: - فريق رجع عن تلك الأفكار وإن بقي معه شيء من لوثتها. العلمانية التي ترتدي ثوب الإيمان. الغربيين أنفسهم. ولعل من أبرز وأهم التيارات والمذاهب الفكرية المعاصرة التي دخلت على المجتمعات الإسلامية وكان لها أثر بالغ فيها ما يلي: بقولها: تأتي كلمة علمانية من الكلمة الإنجليزية Secularism، وينذهب آخرون إلى أن العلمانية هي الترجمة العربية لكلمة Secularita في اللغات الأوروبية حيث يقصد بها: إقامة الحياة بعيداً عن الدين أو الفصل الكامل بين الدين والحياة، تعرف دائرة المعارف البريطانية العلمانية بأنها: حركة اجتماعية تهدف إلى الصرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها). ٢. من خلال ما سبق يتضح ضعف التعبير الشائع عن العلمانية بأنها فصل والصواب أن يقال: فصل الدين عن الحياة، إقامة الحياة على غير الدين، ولكنها تکاد تلغيه؛ كعلمانية علمانية متطرفة محاربة للدين، كعلمانية الشيوعية والعلمانية الإلحادية في العصر الحاضر. ولكن على الرغم مما بذله دعاة المنهج العلماني في العالم الإسلامي إلا أنه واجه حملة كشفت حقيقته في العالم الإسلامي مما جعله غير مقبول عند عموم الشعوب الإسلامية لمعرفتهم بحقيقة العلمانية إلى الخروج بدعة جديدة وهي إعطاء العلمانية زخماً بينها لكي المؤمنة" التي يعرفونها بأنها: حرية المعتقد على الصعيد الفردي، بممارسة الشعائر الدينية جماعياً لأي كيان اجتماعي، متمنعاً بقدر واف من الاستقلالية عن سلطة الدولة وهي تعني مواطنة بلادين)، والمتأمل لهذا التعريف يجد أنه لا يقدم أي جديد، في قسمها الذي لا يحارب الدين، الجديد فقط: الاسم الذي قد يسوغ عن بعض العوام أو أشباه العوام قبول المنهج العلماني لأجل أنه الحق به مسمى إن كل من اطلع على فكرة المنهج العلماني يستطيع أن يدرك أن هذا المنهج مخالف للإسلام، بتصادم الإسلام، فالإسلام دين شمولي لا يقبل بحال من الأحوال - في إذهم - العلمانيون. يحصرون دور الدين في علاقة العبد بربه، ويرفضون أن يتعدى ذلك لينظم باقي مناحي الحياة. (١) جريدة الشرق الأوسط، عدد ١٠٠، ١٤٢٤/٥/١، هـ، ٢٢٨، في الغرب في القرن الثامن عشر؛ هوليوودي وهو بريطاني ملحد؛ وذلك عام ١٨٤٦م، كما ظهرت فكرتهافي الهند وحصلت على دعم كبير من الهندوسين، ففكرة العلمانية مرتبطة بمحاولة إضعاف دور الدين في الحياة. ونظراً لكون العلمانية فكرة غربية فقد بنيتها الغرب وأصبحت من القضايا المسلمة بها في الفكر الغربي السياسي، ومن ثم في الفكر السياسي العالمي الدائر في تلك الحضارة الغربية، النظام السائد في كل دول العالم. ويمكن أن نخلص مما سبق إلى الأمور التالية: - العلمانية تعد منهج حياة يهدف إلى فصل الدين عن الدنيا أو يمكن الدين (ـ العلمانية حديثة الوجود غربية الأصل، فرض وجودها ظروف عاشها العالم الغربي تحت ضغط الكنيسة التي وظفت رجالها الدين في الضغط على الناس واستعبادهم. فليس هناك رؤية واضحة ولا فكرة

متفق عليها عندهم. العولمة في اللغة: العولمة تعني إكساب الشيء طابع العالمية أو أنها **تصير المحلي عالمياً**. أما تعريف العولمة وتوصيفها العقلي العملي فهو أمر مختلف في بُعد كبير حيث نجد أن البعض يحصرها في جانب أو جوانب من النشاط الإنساني، فتجد من يحصرها على النشاط الاجتماعي أو السياسي أو الصحيح هو أن العولمة في مدلولها الأعم الأشمل هو: صيورة العالم واحداً، وهو ظاهر الدلالة على محاولة صبغ العالم بصبغة واحدة من خلال توحيد النظم والرؤى والمنظفات بحيث تلغى قضايا التفرد والخصوصية الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، العولمة هي التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والمجتمع والسياسة والثقافة والسلوك دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة أو انتماء إلى وطن محدد أو لدولة معينة دون حاجة إلى إجراءات حكومية فالعولمة ليست تعريفاً جاماً لحركة ثقافية فحسب، ذلك بكثير؛ المدلولات اللغوية المتصلة بها، بل العولمة مفهوم شمولي يذهب عميقاً في جميع الاتجاهات لتوصيف حركة التغيير في سيرورتها المتصلة، وأجل ذلك فأمر المهم في الموضوع هو فهم كنه العولمة ومضمونها، حركة تغيير شاملة من ناحيتين: الناحية الأولى أنها شاملة للجميع يعني للعالم كله لا مناص لأحد عنها، والناحية الأخرى أنها شاملة لكل جوانب الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها **العولمة أنها في حقيقتها إرادة للهيمنة من خلال القمع والقضاء على إذن العالم** الواحد الذي يراد الوصول إليه هو المتمثل في النموذج الغربي والذي يحقق مصالح الغرب، وهذا أمر ظاهر واضح غايته الموضوع وذلك أن العولمة تقتضي توحيد النظم والقيم وغيرها حسب فالغرب هو الذي سيتولى تحديد معايير القيم ومواصفاتها، وهو الذي يوجه هذه العولمة، فإن هذه العولمة ستكون مصبوغة بالصبغة الغربية فلسفة ونمط حياة، الحقيقة المعلنة التي تظهر في أطروحات مثقفي الغرب وصانعي القرار فيها، يقول أحدهم «**(1) يتبعين على الولايات المتحدة إلا تتردد في الترويج لقيمها وسعيها لأن يكونوا مهذبين أو سيسبيين، ينكروا حقيقة أنه بين كل الأمم التي عرفها تاريخ العالم، فإن أمتهم هي وتحسينها وهي النموذج الأفضل للمستقبل، ويتعين على الأمريكيين أن ودع غيرك يعيش» يعنيان التبني، النزعة الانفصالية والصدوع الثقافية التي تقوض الاستقرار، ويمثل تهديد الصالح الولايات المتحدة وللسلام الإقليمي وللأسواق الأمريكية ولقدرة الولايات المتحدة على القيادة؛ إن الإجابة هي نعم بالتأكيد، وهي كذلك **(أ) هو ديفيد روشكوف أستاذ جامعي ومسؤول في حكومة كلنتون سابقاً**. سوف تكون مفصلة على ما يحقق مصالح تلك القوى ويحفظ لها موقعها المتفوق وريادتها الحضارية وي**بني عالم الضعفاء اتباعاً مهمشين منجزين من أنفسهم أو بسلطان العولمة نحو التبعية لتلك القوى**. عشر وعلى امتداد القرن العشرين من تطورات هائلة في مجال التكنولوجيا، الممكن القول: إن العالم أصبح قرية واحدة، من خلال سهولة التواصل العالمي بانتقال الأفكار والمبادئ والقيم فضلاً عن الأمور المادية المتعلقة بالاقتصاد وغير ذلك، العولمة من خلالها، والتي من أبرزها: وهو الجانب الفكري والثقافي، الذي يهدف إلى إعادة بناء المنظومة الفكرية والثقافية في العالم بما يتوافق مع فكر معين، جوانبه ومناسطه الصحفية والكتب والمؤلفات وموقع الإنترنت والأفلام وغيرها استطاعت أن تحقق تقدماً أرهينا في هذا الباب وهو أمر مشاهد وكيفي أن أشير هنا إلى ما تحقق أفلام هوليوود والغربي عموماً وجعله النموذج المتميز الذي يستحق أن يسار على نهجه عادت بصورتها الجديدة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في محاولة لإزالة كل ما يعترض طريق العولمة وتنصيب من يسهم في امتدادها ويدعمها. جـ - الضغوط الاقتصادية والسياسية والتهديدات العسكرية، وهذا لا إلى غيرذلك من الوسائل. تسود العالم ثقافة إنسانية تناسب كل الناس وتساعد على تعاونهم وتطورهم والاستفادة من خبرات بعضهم من بعض، بل عادت العولمة أن تكون الأخرى؛ ولعل من أبرزها في الجوانب الاقتصادية والثقافية: كمنظمة "الجات" وبعدها منظمة التجارة العالمية والمؤتمرات الدولية التي تعقدتها كمئتمر دافوس وغيرها مما كان على نسقه، وكلها تتجه إلى تحرير الأسواق وخصخصة المؤسسات وانسحاب الدولة من الدعم الاقتصادي للمؤسسات الوطنية، بل وانسحابها حتى من وظائفها وظاهر في اقتصادياً على ما سواها، وتحويل شعوب الأرض سوى الأقوياء إلى مستهلكين فقط يعيشون عالة - والأمر الذي لا شك فيه أن السبق والغلبة ثم الهيمنة هي للأقوى اقتصادياً، والاندحار ومن ثم الانهيار من نصيب الضعفاء اقتصادياً، يفسر لنا سبب الإلحاح المستمر من الغرب، وبالذات أمريكا، دول العالم نحو الانخراط في المنظومة الاقتصادية الغربية تحت مظلة العولمة، والقيم والأفكار والمعايير والرموز والتعبيرات والإبداعات وأنماط العيش التي تشكل قوام حياة المجتمع، صياغة ثقافة كونية شاملة تغطي مختلف جوانب النشاط الإنساني، اتجاه صاعد يضغط في سبيل صياغة نسق ملزم من القواعد الأخلاقية الكونية، التي تتوافق بطبيعة الحال مع نسق الحياة والثقافة الغربية حيث تسعى القوى الغربية، وعلى رأسها أمريكا، إلى إيهام الشعوب على المستوى العالمي والضغط على الحكومات بوجوب**

الانتماء إلى ثقافة وطمس الفروق الحضارية بين المجتمعات، مع الإيمان بأن الثقافة العالمية يجب أن تستمد من الثقافة المركزية الغربية المهيمنة نظرًا للإدارات الإعلامية وشبكات المعلومات المتقدمة على المستوى العالمي، في خضم ذلك ستتجدد الشعوب نفسها سائرة في فلكها دون اختيار. ولعل أبرز المخاطر الثقافية التي تواجهها شعوب الأرض التسلط على هوية الشعوب للعبث بها أو إلغائها؛ ذلك أنه لا يرادبقاء إلا لهوية واحدة ولأجل ذلك فقد سخر العولمة لطمس المعالم الشخصية التي تميز كل أمة بالشخصية الغربية ومن شعب لشعب، وذلك على مقدار بعدها وقربها من الأسس التي تقوم عليها ثقافة الغرب وقيمه وتطوراته. والمتأمل لكثير من المجتمعات الإسلامية يجد طمسًاً واقعًا في كثير من معالم الشخصية الإسلامية، ولعل من أبرز ذلك ما يظهر من الزى واللباس ثم لاشك أن ذلك وإن كان يبدو أموراً شكلاً، إلا أن التغيير غالباً ما يبدأ كذلك؛ والأمر الذي لا بد أن يتتبه له هو أن مخاطر العولمة على الهوية إنما هي مقدمة لمخاطر أعظم على الدولة والوطن والثقافة والأمة؛ إذ هي تعني بلا شك مزيداً ومن خالفاً ذلك أو لم يستجب له فإنه يجلد بسياط حقوق الإنسان، وحقوق المباشر للمتبنين للعولمة والتبعية المطلقة والضغط على الحكومات لأجلهم. من ليبر (Liber) وتعني الحر، وهي تطلق الآن ويراد بها حركة أو مذهب والسبب في ذلك يرجع إلى عدم الثبات الذي يعاني منه هذا المذهب، أمر يعترف به أربابه والدارسون له. لأن معناها وتأكيداتها تبدلت بصورة ملحوظة بمرور السنين، وجاء في الموسوعة الحرة (ويكيبيديا): «الليبرالية تتعدد بتنوع الليبراليين، وكل و تاريخ الليبرالية المشحون بالتجارب الليبرالية المتنوعة والنتائج الثقافي المت懋ور حول قيم الليبرالية كلها مراجع ل الليبرالية لكن أيّ منها ليس مرجعًا ملزماً، ومتي ألمّ أو حاول الإلزام سقط من سجل وأجل ذلك نجد أن تحديد مفهوم دقيق لهذا المصطلح أمر في غاية الصعوبة. ولو أردنا العودة لتاريخ هذا المذهب لعلنا من معرفة تاريخه نستطيع العظمى نحو ثلثي القرن التاسع عشر - القرن الذي برز فيه الليبرالية *Laissez Faire* موجةً أكثر رسوخاً من مجرد حرية العمل، الاقتصادي على الرغم من النزعة الاجتماعية التي طرأت عليها؛ إذ تفترض أبداً من الناحية السياسية - وكذا الاجتماعية - فنظرية الليبرالية كانت وتتفر من سيطرة الدين وأهله على نواحي النشاط الاجتماعي والتعليم والسياسة. حيث إنها تعطي جملة من الحريات السياسية مثل حرية الترشيح، وحرية التفكير والتعبير، وحرية الاجتماع، الضمانات المانعة من الاعتداء على الأفراد وحرياتهم مثل ضمان الاهتمام، وعلى الرغم من صعوبة تحديد مفهوم دقيق ل الليبرالية إلا أن هناك» وقد دأب الليبراليون منذ لوك وفولتير على القول بأن تقييم رأي اجتماعي أو نظام سياسي لا يتطلب أكثر من استرشاد بمصالح الإنسان ومهامه وموiolه في الحياة الدنيا». كما ترى الليبرالية مبدأ أولوية الفرد على الجماعة، وبعد هذا الخط (أزمة الإنسان الحديث، تشارلز فرنكل، ٣٧)،

(٢) أزمة الإنسان الحديث، الرئيس للفكر الليبرالي الأمر الذي دفع بعض الليبراليين إلى تعريف المجتمع باعتباره «مجموعة من الأفراد يسعى كل واحد منهم لتحقيق ويطلق على هذا الرأي المذهب "الذري" حيث ينظر للأفراد كذرات متنافرة بداخل المجتمع، وهذا التفكير يؤدي إلى فكرة يمكن لأحد أن يقف في طريقه، والنتيجة صراع لا نهاية له. - تنظر الليبرالية إلى العقائد الدينية والفلسفية على أنها أمور شخصية قد تكون لها أهمية قصوى في خلاص الفرد وفهمه معنى الحياة، أن يكون لها أي قيمة سياسية في حد ذاتها. - ترى أن النزاع على السلطة هو الحقيقة الثابتة في الحياة السياسية، إلى (ج. ك. غولبريت) وتنطلق الفكرة من اعتقادهم أن المصدر الأكبر للظلم الاجتماعي هو احتكار السلطة في يد مجموعة واحدة سياسية أو اجتماعية أو دينية، لاتفاق قيام الظلم الاجتماعي هو أن توازن القوة بالقوة). (الجوهر الليبرالي: فردانية القيم والتصورات، هبة رؤوف عزت: (مقالات) موقع إسلام www.net أون لاين تشارلز فرنكل: ص). - لا تعرف الليبرالية بمرجعية مقدسة إذ ترى أنها لو قدست أحدرموزها إلى درجة أن يتحدث بلسانها، أو قدست أحد كتابه إلى درجة أن تعدد المعبر الوحيد أو الأساس عنها لم تصبح ليبرالية ولا أصبحت مذهبًا مختلفاً على نفسه. ما سبق يعطي الملخص الأوسع لهذا الفكر المسمى الليبرالية، المطلع عليه وعلى أطروحات أربابه يلاحظ أموراً أهمها: - أن الفكر الليبرالي ينطلق في بنائه الأساسية من السعي الحثيث في خلال قراءاتٍ هـ قراءة نقدية؛ ولذلك حسنها الذي شهد به الأعداء وكثرتها وتعدد مجالاتها؛ - الفكر الليبرالي من اسمه يلاحظ أنه منتج غربي كان نتاج واقع وهذا الفكر قد يكون أثمر في ذلك المجتمع وأدى نتائج مقبولة فهو متميز بالنسبة للمستفيدين منه، ولكن قد لا (انظر: هل للتفكير العربي الحديث من فلسفة، ماجد صالح السامرائي، awu-dam.org). يكون كذلك لدى مجتمعات لم تستفد منه، بل لا تحتاج إليه أصلًا، وهنا لا بد أن نشير إلى أن الفكر الليبرالي لم يقرأ قراءة نقدية من أعجب به من الليبراليين العرب، بل أخذهم الإعجاب بالحضارة المادية الغربية فاعتقدوا أن القوم فركبوا موجة هذا الفكر دون وعي بمضمونه - لدى البعض. وحاول كما أن فئاماً منهم قد ضاقوا ذرعاً



